نقد خطط القراءة الحداثية للنص الشرعي

أ.د/ عمار طسطاس

مقدمة:

تقتضي الضرورة العلمية والنهجية عرض خطط القراءة الحداثية للنص الحداثية للنص الشرعي أولا ثم النقد الموضوعي لهذه الخطط ثانيا، ولا شك أن المقصود بخطط القراءة الحداثية للنص الشرعي هي القراءة التي يعزوها أصحابها للحداثة بمفهومها الغربي في واقعها التطبيقي التاريخي الذي مورس على قراءة الكتاب المقدس، التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى بعد النهضة الأوروبية الحديثة.

وعملية القراءة الحداثية للنص الشرعي الإسلامي المتمثل في القرآن والسنة عملية قديمة قام بها في البداية مجموعة من المستشرقين قدامى ومحدثين، أمثال نولدكه في كتابه القرآن في نهاية القرن التاسع عشر وجولد زيهر في كتابة العقيدة والشريعة، وغيرهما كثير، طعن في المصادر العليا للإسلام وحاول التشكيك في صحتها بادعاء أجوف للعلمية والموضوعية والمنهجية، ولكن بضاعتهم الافترائية العرية عن العملية والصحة والضغينة الحجة لم تنطل على أحد ولم يعرها كبير اهتمام.

لكن النابتة المنبتة عن أصلها وجذورها التي تولت الترويج لهذه الافتراءات والترهات من تلاميذ الحداثة الغربية والاستشراق أمثال: محمد أركون الجزائري، وعبد المجيد الشرفي التونسي، وعبد الله العروي المغربي، ونصر حامد أبوزيد المصري، وطيب تيزني السوري وغيرهم فيما يعرف بالفكر العربي المعاصر، تولوا وضع هذه الخطط وأنتجوا سيلا من الدراسات أقل ما يقال عنها أنها أحدثت ضجة وبلبلة فكرية لد الشباب والمثقفين البسطاء.

فيما هي هذه الخطط في قراءة النص الشرعي، وماهي قيمتها العلمية والمنهجية إن كان لها قيمة أصلا في ميزان النقد العلمي والبحث الموضوعي غير المتحيز؟

الحقيقة أن الإجابة عن هذه الأسئلة إجابة علمية دقيقة قائمة على الحجة والرهان والإحاطة بأعمال الحداثيين العرب في مجال دراسة النص الشرعي من منظور حداثي قد تولى المفكر المغربي الأستاذ الدكتور طه عبد الرحمن الذي تناول هذه الخطط بالعرض والتحليل والنقد في العديد من كتبه وخاصة في كتابه القيم " روح

الحداثة" مدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية الذي صدرت طبعته الأولى عن المركز الثقافي العربي عام 2006 في الدار البيضاء بالمغرب.

واعقبت هذا المؤلف ودراسات قيمة في هذا الباب:

كالبحث العلمي الموسوم بـ: "القرآن الكريم والقراءة الحداثية" دراسة تحليلية نقدية لإشكالية النص عند محمد أركون، وهي رسالة علمية نال بها صاحبها رسالة الدكتوراه طبعت بالمغرب سنة 2010م.

وفي نفس السنة صدرت دراسة علمية موسعة للكاتبين عبد السلام البكاري والصديق محمد بوعلام بعنوان: رؤية نقدية للكتاب" السنة والإصلاح" للدكتور عبد الله العروي عن الاختلاف.

ولما كانت الدراسة التي قدمها الدكتور طه عبد الرحمن في كتابه " روح الحداثة" دراسة شاملة ومركزة ومستوعبة لخطط القراءة الحداثية للنص الشرعي وإن كانت تركز بالأساس على القراءة الحداثية للقرآن فهي صالحة للتطبيق على السنة الصحيحة باعتبارها وجبا، ولذا سيكون الاعتماد في عرض الخطط ونقدها باختصار وتصرف على الفصل الرابع من كتاب "روح الحداثة" توخيا للدقة والوضوح، وطلبا للفائدة العلمية للقارئ الكريم.

يفرق طه عبد الرحمن في كتابه روح الحداثة بين روح الحداثة القائمة على مبادئ ثلاثة:

- ✓ مبدأ النقد
- ✓ مبدأ الرشد
- ✓ مبدأ الشمول

وواقع الحداثة القائمة عل التطبيق المبدع لتلك المبادئ في التاريخ الأوربي الذي نقل أوروبا من العصور الوسطى المظلمة إلى العصر الحديث بمنجزاته المعرفية والعلمية والصناعية، ومن هذا المنظور يعتبر أن القراءة الحداثية للقرآن خصوصا والنص الشرعي عموما التي يقدمها المنتسبون إلى الحداثة ليست في حقيقتها وواقع أمرها تطبيقا مباشرا لروح الحداثة أي عملية إبداعية موصولة مع النص والتراث الإسلامي، بل هي قراءات مقلدة لتطبيق سابق يعكس التجربة الغربية أوقل هي عملية إسقاط، يتمثل التطبيق الغربي المتجسد في "واقع الحداثة" لا في روحها، ومن ثمة فهي قراءات مفصولة لا موصولة.

ولا شك أن هذا التطبيق أراد له أهله أن يبقى قاطعا صلته بأسباب الماضي- في أوروبا – جراء تجربتهم المريرة مع الكنيسة- وما عانوه من ظروف التخلف طيلة العصر الوسيط في جميع مجالات الحياة الفكرية والروحية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية وما إليها.

وبالرغم من أن هذا لا ينطبق على تاريخ المسلمين خلال تلك الفترة وأوضاعهم الحضارية كانت تشهد على تحضرهم وتقدمهم في جميع مجالات الحياة رغم تقهقرهم بعد ذلك إلا أن بعض الدراسين الحداثيين أبو إلا أن تحدو الأمة المسلمة في صلتها بتراثها حذو الأوروبيين في صلتهم بتراثهم وتاريخهم.

ومن هنا جاءوا بقراءات للقرآن والنصوص الشرعية تقطع مع القراءات التراثية والتفسير المورث، أملا في فتح عهد تفسيري جديد.

ولوسلمنا جدلا أن هذه القراءات تتضمن عناصر من الابتكار، فلا نسلم بأن هذا الابتكار إبداع حقيقي، لأن من طبيعة الإبداع الحقيقي أن يكون موصولا، وهذا إبداع مفصول، حيث قطع صلته بتراثه تقليدا لاجتهادا من الذات، وكل إبداع هذا شأنه لا يكون إلا بدعة وبناء عليه كانت القراءات المفصولة قراءات تمارس تقليد التطبيق الغربي لركن الإبداع، لتصل إلى نتائج تمحو خصوصية النص القرآني.

وبهذا تسعى القراءات الحداثية إلى تحقيق قطيعة معرفية بينها وبين ما يمكن أن نطلق عليه اسم" القراءات التراثية" في العلوم الإسلامية.

أولا: القراءة الحداثية المقلدة:

إذا تقرر عند الحداثيين أن الوجه الذي تحقق به قراءة النص الشرعي قراءة حداثية هو أن تكون "قراءة اعتقادية"، فقد اصطنعوا خططا لتحقيق هذا المشروع الانتقادي على النحو الآتي:

اعتمدت القراءات الحداثية للنص الشرعي خططا انتقادية مختلفة، وكل خطة تقوم على أركان ثلاثة:

- ✓ الأولى: الهدف النقدي الذي تروم تحقيقه.
- ✓ والثانية: الألية الموصلة إلى هذا الهدف.
- ✓ والثالثة: العمليات المنهجية الموصلة إلى الهدف

وتنحصر هذه الخطط الثلاثة في الآتي:

1. خطة الأنسنة.
2. خطة العقلنة.
3. خطة الأرخنة أو التاريخ.

والقاسم المشترك بين هذه الخطط جميعا أن الهدف الذي تسعى إليه هو إزالة عائق اعتقادي معين.

1- خطة الأنسنة: تسمى الخطة الأولى التي تقوم عليها القراءة الحداثية المقلدة " خطة الأنسنة" وتستهدف هذه الخطة أساسا رفع " عائق القدسية" ويتمثل هذا العائق في اعتقاد أن القرآن كلام مقدس، والآلية المتوصل بها في خطة التأنيس أولا والأنسنة لإزالة هذا العائق الاعتقادي، هي نقل الآيات القرآنية من الوضع الإلهي إلى الوضع البشري، ويتم هذا النقل بواسطة عمليات منهجية تتمثل في:

أ- حذف عبارات التعظيم: التي يستعملها المؤمنون في تعظيمهم ككتاب الله تعالى: مثل "القرآن الكريم" – "القرآن العزيز"، "الآية الكريمة"- "أو قال الله تعالى".

ب-استبدال مصطلحات جديدة بأخرى مقررة: يعمد القارئ الحداثي إلى استعمال مصطلحات يضعها من عنده لطمس هوية القرآن فتجنب ألفاظ القداسة كالتعبير عن تسمية القرآن: " بالخطاب النبوي" يقول محمد أركون في كتابه: القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني: " وكنت قد بينت في عدد من الدراسات السابقة أن مفهوم " الخطاب النبوي" يطلق على النصوص المجموعة في كتب العهد القديم والأناجيل والقرآن كمفهوم يشير إلى البنية اللغوية والسيميائية للنصوص لا إلى تعريفات وتأويلات لاهوتية عقائدية" ص5

ج- التسوية في رتبة الاستشهاد بين الكلام الإلهي والكلام الإنساني.

د- التفريق بين مستويات مختلفة في الخطاب الإلهي: يفرق القارئ الحداثي بين" الوحي" و "التنزيل" ويفرق بين " الوحي" و" المصحف" ويفرق بين "القرآن" و "المصحف" ويفرق بين "القرآن الشفوي" و" القرآن المكتوب" أو يفرق بين " الوحي في اللوح المحفوظ " و"الوحي في اللسان العربي".

هـ- المماثلة بين القرآن والنبي عيسى عليه السلام: يقول نصر حامد أبوزيد: " لما كان المسلمون ينفون عن السيد المسيح الطبيعية الإلهية ويثبتون له الطبيعة الإنسانية، وجب عليهم أن ينفوا عن القرآن الطبيعة الإلهية ويثبتوا له هة الآخر الطبيعة البشرية. نقد الخطاب الديني، ص20-205.

و- السياق الثقافي للنص القرآني: يصبح النص القرآني مجرد نص تم إنتاجه وفقا لمقتضيات الثقافة التي تنتمي إليها لغته بحيث ينزل من رتبة التعليق بالمطلق إلى رتبة التعليق بالنسبي.

ي- الوضع الإشكالي للنص القرآني: بمقتضى ذلك يصير النص القرآني نصا إشكاليا يتفتح على احتمالات متعددة، ويقبل تأويلات غير متناهية، فضلا عن الانفراد بمعرفة المدلول الأصلي لهذه الآية أو تلك من آياته

أأ- استغلال النص القرآني عن مصدره: يتم فصل النص القرآني عن مصدره المتعالي وربطه كليا بالقارئ الانساني بدعوى أنه لا سبيل إلى إدراك المقاصد الحقيقية للمتكلم المتعالي لانقطاع صلته بنا وغيابه عنا.

بب- عدم اكتمال النص القرآني: يصبح النص القرآني " نصا غير متكامل" إذ أنه لا يرفع احتمال وجود نقص فيه يتمثل في حذف كلام أو زيادة عند مرحلة التدوين كما يذهب إلى ذلك طيب تيزني.

1-1-2: خطة العقلنة: نطلق على الخطة الثانية لقراءة النص الشرعي في القراءة الحداثية المقلدة اسم " خطة العقلنة".

وتستهدف هذه الخطة رفع " عائق الغيبية" ويتمثل هذا العائق في اعتقاد أن القرآن وحي ورد من عالم الغيب، وألية التنسيق التي تتوسل بها خطة التعقيل لإزالة هذا العائق، هي التعامل مع الآيات القرآنية بكل وسائل النظر والبحث التي توفرها المنهجيات العلمية والنظريات الحديثة، يقول محمد أركون في المصدر السابق للقرآن والتفسير المورث ص 58. لكننا نعتقد أن أي نقد حقيقي للعقل الديني أنه يتمثل في استخدام كل المصادر المعقولة والتفكير التي تقدمها لنا علوم الإنسان والمجتمع من أجل زحزحة إشكالية الوحي من النظام الفكري والموقع الابستمولوجي الخاص بالروح الدوغمائية"

ويتم هذا التعامل بواسطة عمليات منهجية خاصة نذكر منها الآتي:

أ- نقد علوم القرآن.
ب-التوسل بالمناهج المقررة في علوم الأديان.
ج- التوسل بالمناهج المقررة في علوم الإنسان والمجتمع.
د- استخدام كل النظريات النقدية والفلسفية المستحدثة.

إطلاق سلطة العقل: لقد قرر القارئ الحداثي أنه لا آية قرآنية تمنع على اجتهاد العقل..... ويؤدي تطبيق هذه العمليات المنهجية التفصيلية إلى جعل القرآن نصا دينيا مثله مثل أي نص آخر توحيديا كان أم وثنيا ..... ويترتب على هذه المماثلة النتائج الآتية:

أ- تغيير مفهوم الوحي.
ب-عدم أفضلية القرآن.
ج- عدم اتساق النص القرآني.
د- غلبة الاستعارة في النص القرآني.

هـ- تجاوز الآيات المصادمة للعقل.

3-1-1 خطة التأريخ:

نسمي الخطة الثالثة التي تقوم عليها القراءة الحداثية المقلدة بخطة التأريخ أو الأرخنة وتستهدف هذه الخطة أساسا رفع "عائق الحُكيمة" ويتمثل هذا العائق في اعتقاد أن القرآن جاء بأحكام ثابتة وأزلية وآلية التنسيق التي تتوسل بها خطة التأريخ في إزالة هذا العائق هي وصل الآيات بظروف بيئتها وزمنها وبسابقتها المختلفة.

ويتم هذا الوصل بواسطة عمليات منهجية خاصة نورد منها الآتي:

أ- توظيف المسائل التأريخية المسلم بها في تفسير القرآن: استعملها علماؤنا في تفسير القرآن لقولهم بارتباط بعض آيات الأحكام بالوقائع التاريخية مثل: مسألة أسباب النزول- مسألة الناسخ والمنسوخ- مسألة المحكم والمتشابه - مسألة المكي والمدني-ومسألة التنجيم- حيث وجد القارئ الحداثي في هذه المسائل ضالته، فركبها لتقرير البنية التاريخية الجدلية للآيات القرآنية، وتحصيل المشروعية لممارسة النقد التاريخي على هذه الآيات.

ب-تغميض مفهوم الحُكم: يرد الحكم الآتي تارة بصيغة الأمر وتارة بصيغة الخبر بحيث لا نعرف على وجه التعين- كما يزعمون- مضمونه التشريعي.

ج- تقليل عدد الأحكام: لتأثر الأحكام بالأحوال والأوقات الخاصة، ونظرا لنسخ بعضها وتجاوز التاريخ لبعضها الأخر دعوا إلى الاقتصار على بعضها فقط ريثما تتجاوز مستقبلا حسب التطور.

د- إضفاء النسبية على الأحكام: نظرا لتطور الأوضاع الاجتماعية والسياسية والثقافية لا يمكن حمل معاني هذه الأحكام على معاني مستقرة أو مطلقة.

هـ- تعميم الصفة التاريخية على العقيدة: ويؤدي تطبيق هذه العمليات المنهجية التاريخية إلى جعل النص القرآني نص تاريخي مثله مثل أي نص تاريخي آخر. ينتج عن هذه المماثلة التاريخية بين النص القرآني والنصوص التاريخية النتائج التالية:

1- إبطال المسلمة القائلة بأن القرآن فيه بيان كل شيء.

2- إنزال آيات الأحكام منزلة توجيهات لا إلزام معها.

3- حصر القرآن في الأخلاقيات الباطنة الخاصة.

4- الدعوة إلى تحديث التدين: تقتضي القراءة الحداثية أن نستخلص تدين يتفق وفلسفة الحداثة بتجاوز العقائد والأحكام والأخلاق التي جاء بها الوحي القرآني في العبادات والمعاملات.

2-1 (نقد القراءات الحداثية المقلدة للنص الشرعي)

بعد عرضنا للخطط النقدية الثلاث للقراءة الحداثية المقلدة للنص الشرعي، ننتقل إلى تقويم هذه القراءات من مرجعيتها الحداثية نفسها.

إذا صح أن الواقع الحداثي الغربي أو قل التطبيق الغربي لروح الحداثة يتميز بقطع الصلة بكل ماضي وقديم، واستطاع أن يفتح آفاقا مستقبلية ويطرق أبوابا جديدة لا يتطلع إليها من يبقى متمسكا بأهداب الماضي، يكون حينئذ هذا الواقع ممارسة إبداعية مستمرة وشاملة، ولو أنها ممارسة إبداعية تخص أهل الغرب ولا تلزم غيرهم من الأمم.

وإذا تأملنا القراءات الحداثية العربية في ضوء هذه الحقيقة تبين لنا أن أصحابها:

أ- لم يمارسوا الفعل الحداثي في إبداعيته.
ب- ولا انطلقوا فيه من خصوصية تاريخهم.
ج- بقدر ما أعادوا إنتاج الفعل الحداثي كما حصل في تاريخ غيرهم مقلدين أدواره وأطواه.
د- ويتجلى هذا التقليد في كون خططهم الثلاث المذكورة آنفا:
أ- مستوحاة من واقع الصراع الذي خاضه الأنواريون في أوروبا مع رجال الكنيسة والذي أدى بهم إلى تقرير مبادئ ثلاثة أنزلن منزلة قوام الواقع الحداثي الغربي:

أولها: مقتضاه أنه يجب الاشتغال " بالإنسان" وترك الانشغال " بالإله". وبفضل هذا المبدأ تم التصدي للوصاية الثقافية للكنيسة.

ثانيها: مقتضاه أنه يجب التوسل " بالعقل" وترك التوسل بالوحي، وبفضل هذا المبدأ تم التصدي للوصاية الثقافية للكنيسة.

ثالثها: مقتضاه أنه يجب التعلق "بالدنيا" وترك التعلق بالأخرة. وبفضل هذا المبدأ تم التصدي للوصاية السياسية للكنيسة.

لا يخفى أن تدقيق النظر في الخطط الثلاث لأصحاب القراءات الحداثية المقلدة دلت عليها تلك التجربة الغربية في مبادئها الثلاث:

1- خطتهم في التأنيس أو الأنسنة متفرغة على المبدأ الأول الذي يقضي بالاشتغال بالإنسان دون الإله.

2- خطتهم في العقلنة أو التعقيل متفرغة على مبدأ الثاني الذي يقضي بالتوسل بالعقل دون الوحي.
3- خطتهم في التأريخ متفرغة على المبدأ الثالث الذي يقضي بالتوسل بالدنيا دون الآخرة وعندئذ نقول لاغرابة في أن يعمد هؤلاء الحداثيون إلى التهافت على كل ما أنتجه العمل بهذه المبادئ الأنوارية في المجتمع الغربي من معارف وعلوم ومناهج واليات ونظريات فيدعون إلى إسقاطها على نصوص الوحي والإسلام والتراث العلمي الإسلامي حيث يقتضي بهم الأمر إلى النتائج التي توصل إليها علماء الغرب بصدد التوراة والإنجيل. ولا يخفى على ذي بصيرة ما في هذه الإسقاطات المقلدة من عيوب منهجية ونتائج وهمية تفقد لنتائج المتواصل إليها مصداقيتها وعمليتها تبعا للعيوب المنهجية الآتية:

1- فقد القدرة على النقد: إن إسقاط أية وسيلة على أي موضوع يحتاج إلى مشروعية ومشروعيته تقوم في التحقق من وجود المناسبة بين الوسيلة والموضوع. ولا مناسبة هنا بين النقد الموجه للقرآن من قبل النقد بالمفهوم الغربي للمسيحية.
2- ضعف استعمال الآليات المنقولة: إن كثيرا من المنهجيات والنظريات التي نقلها هؤلاء لم يتمكنوا من ناصية استعمالها.
3- الإصرار عل العمل بالأليات المتجاوزة: بنى هؤلاء على بعض ما نقلوه تقريرات حاسمة وتحليلات أرادوها نافدة، واتهموا مخاليفها بـ:" التراثية". و"التقليدية" و"السلفية" و"الجمود" لكن سرعان ما ظهرت على الحاجة إلى تجاوز هذا المنقول فلم يرجعوا طريقتهم الإسقاطية غير معتبرين تاريخية هذه الأدوات ولا نسبية محصولاتها.
4- تهويل النتائج المتوصل إليها: لما كانوا عاجزين عن نقد الآليات المنقولة، فضلا عن عجزهم عن ابتكار ما يضاهيها، عظمت في أعينهم وعظم صانعوها وأوهموا أنفسهم والقارئ معهم بأن ما توصلوا إليه من استنتاجات بواسطتها بلغ الغاية في تحديث النص القرآني.
5- قلب الحقائق الخاصة بالقرآن : قدموا ما ينبغي تأخره وأخروا ما ينبغي تقديمه من الحقائق القرآنية، وجعلوا ما هو أصلي فرعيا وما هو فرعي أصليا ..إلخ
6- تعميم الشك على كل مستويات النص القرآني: نزلوا آلية الشك على النص القرآني، وانتهوا في خاتمة المطاف إلى تقرير الارتياب في أصل النص القرآني وقدسيته وتماميته وصلاحيته.